مؤتمر
تحديات ما بعد الربيع العربي
تجمع الأصالة- مجلة البيان
المركز العربي للدراسات الإنسانية
ليبيا – طرابلس (٩ – ١٠) صفر ١٤٣٤هـ (٢٢– ٢٣) ديسمبر ٢٠١٢م

بحوث مؤتمر

تحديات ما بعد الربيع العربي

مؤتمر
تحديات ما بعد الربيع العربي
تجمع الأصالة- مجلة البيان
المركز العربي للدراسات الإنسانية
ليبيا – طرابلس (٩ – ١٠) صفر ١٤٣٤هـ (٢٢– ٢٣) ديسمبر ٢٠١٢م

دور العلماء في تعزيز الهوية والنهوض بالأمة

إعداد: د. خالد بن عبدالله الشمراني

أستاذ الفقه المشارك بجامعة أم القرى

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً...وبعد:

فأن العلماء هم ورثة الأنبياء ،وحراس الملة ،وهم من أولي الأمر الذين أمر الله بطاعتهم في المعروف ،مصداقاً لقوله تعالى﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩]، يقول الإمام أبوبكر ابن العربي:" والصحيح عندي أنهم الأُمراء والعلماء جميعًا؛ أما الأمراء، فلأن أصل الأمر منهم والحكم إليهم، وأما العلماء، فلأن سؤالهم واجب متعيَّن على الخلْق، وجوابهم لازمٌ، وامتثال فتواهم واجب، لا سيَّما وقد قدَّمنا أن كل هؤلاء حاكمٌ، وقد سمَّاهم الله تعالى بذلك، فقال: ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ﴾[المائدة:٤٤

فأخبر تعالى أن النبي – صلى الله عليه وسلم – حاكمٌ، والربَّاني حاكم، والحَبْر حاكم، والأمر كله يرجع إلى العلماء؛ لأن الأمر قد أفضى إلى الجُهَّال، وتعيَّن عليهم سؤال العلماء؛ ولذلك نظَر مالك إلى خالد بن نزار نظرة منكرة، كأنه يشير بها إلى أن الأمر قد وقَف في ذلك على العلماء، وزال عن الأُمراء لجهْلهم واعتدائهم، والعادل منهم مُفتقر إلى العالم كافتقار الجاهل"

ويقول ابن تيمية – رحمه الله – عن أولي الأمر: "أصحاب الأمر وذَووه، وهم الذين يأمرون الناس، وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة وأهل العلم والكلام؛ فلهذا كان أُولو الأمر صِنفين: العلماء، والأمراء " واذا تقرر ما سبق ؛فإن على العلماء من الدور والتبعة ـفي بيان الحق والنصح للخلق والاصلاح–ما ليس على غيرهم ،ويتأكد هذا الدور ؛في أوقات الازمات والمحن حيث يكون عليهم مزيداً من العبء والمسؤولية؛ في توجيه الناس وجمع كلمتهم حتى ترسو سفينة المجتمع على بر الأمان... ويتحقق مراد الله: من إقامة الدين وسياسة الدنيا به.

ولا يخفى أن الانجاز الاكبر لثورات الربيع العربي ؛هو إزالة مجموعة من الأنظمة الفاسدة التي جثمت على صدور الشعوب في تلك البلدان عقوداً متطاولة.. هذه الأنظمة التي عملت على مسخ هوية الامة وتبديد مقدراتها، وإيقاعها في شراك التبعية لأعدائها ...وقد رافق سقوط هذه الأنظمة جملة من المتغيرات الكبرى يمكن اجمالها فيما يلي:

أولاً: فراغ سياسي: كليٌ، كما حدث في ليبيا.. أو جزئيٌ ،كما حدث في مصر وتونس واليمن.. صاحب ذلك الفراغ السياسي، نوع من الخلل والارتباك في اوساط القوى الثورية ولا سيما في ظل نقص الخبرة وحداثة التجربة.

ثانياً: حالة من التشرذم والتفرق والتجاذب الشديد ،بين أطياف المجتمع؛ تبعاً للاختلاف بين النخب والتيارات السياسية :أما بسبب الاختلاف الفكري والعقدي ،أو بسبب الاختلاف في الرؤى المتعلقة بإعادة بناء الدولة. .وأما بسبب المطامع الدنيوية والمكاسب السياسية والمادية التي يسعى كل فريق لتحصيلها.

ثالثاً: جملة من الأمراض الفكرية والسلوكية والاجتماعية ،من رواسب عهود أنظمة الحكم البائدة وما خلفته من تجهيل وتشويه لفطر الناس وقناعاتهم.

وقد ولدّ ذلك كلّه وضعاً معقداً؛ يوجب على أولي الأحلام والنهى، وعلى رأسهم العلماء...نظراً خاصاً وتدابير استثنائية للخروج بهذه الشعوب من عنق الزجاجة. ويأتي في مقدمة ذلك دعوة هذه الشعوب للاعتصام بالكتاب والسنة والاجتماع والتنسيق، ورسم خطة واضحة المعالم للخروج من هذا الوضع الاستثنائي وتحشيد عامة الناس واقناعهم بالمشروع الإسلامي ؛ليكونوا القاعدة الصلبة التي تحمل هذا المشروع وتحميه من أعدائه .

إن الثورات الشعبية في بلدان الربيع العربي لم تحقق بعد غايتها؛ بل هي تمخر بحراً مائجاً مضطرباً وتصارع أمواجاً عاتية :قد ترسوا فيه على بر الأمان(وهذا ما نرجوه بفضل الله ورحمته)...

وقد تغرق ،كما غرقت غيرها من الثورات التي طردت المستعمر الأجنبي (ونسأل الله إلا يكون ذلك)

وقد تبقى تصارع الأمواج ردحاً من الزمن...

وهذه الأمور تتطلب من العلماء بذل جهود مضاعفة ؛في الرجوع بالناس لدينهم وتثبيت هويتهم... والعمل على النهوض بالأمة من كبوتها.

ويمكن إجمال دور العلماء في مجال الحفاظ على الهوية ،فيما يلي:

أولاً :بذل جهودٍ حثيثة لصياغة دستور إسلامي يمثل هوية الأمة وقناعة الأغلبية ؛يكون سلّماً لتطبيق الشريعة الاسلامية ،أو على الأقل الوصول إلى افضل الصيغ ؛التي تحقق أفضل ما يُقدر عليه.

ثانياً: تكثيف البرامج الدعوية والتوعوية والتعليمية ؛ التي تركز على نشر العلم والدعوة بين الناس، والعمل على إيجاد الكيانات الرسمية والأهلية القادرة على القيام بهذا الدور، والعمل بجدٍّ على إصلاح المؤسسات القائمة والمسؤولة عن هذا الأمر .

وقد ترتب على الجهود الدعوية المباركة، طيلة العقود الماضية، في طول العالم الإسلامي وعرضه –ولا سيما دول الربيع العربي –؛آثاراً حميدة، كونت قاعدة شعبيةً عريضة تشربت شريعة الإسلام، وكانت رافداً رئيسياً ؛للمشروع الإسلامي ومن العجيب أن هذه الثمار اليانعة كلها كانت في زمن التضييق والحصار

ومصادرة الحريات وملاحقة الدعاة والتضييق عليهم؛ فكيف يمكن تصور الثمرة في ظل هذا الهامش الضخم من الحرية؟؟!!

ومما ينبغي التأكيد عليه في هذا المقام، أهمية التركيز في الخطاب الدعوي المعاصر على ثوابت الدين ومحكماته والحث على أصول الفضائل والتنفير من أصول الرذائل، واعطاء المسائل الجزئية حجمها المناسب ،وتسكينها في مكانها اللائق بها ،والبعد عن الإغراق فيها.

ثالثاً :بذل الوسع في أعداد الكوادر العلمية المتميزة في مجال العلم الشرعي، والتي تجمع بين فقه الشريعة وفقه الواقع؛ لتأخذ مكانها مستقبلاً في ميادين الفتوى والقضاء والبحث العلمي ؛تمهيداً لتهيئتها لتسنم القيادة الشرعية في المجتمع.

رابعاً :تطبيع شعيرة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بضوابطها الشرعية ؛لتكون سياجاً حامياً ،وحصناً منيعاً ؛لمصالح المجتمع الدنيوية والأخروية.

خامساً :البيان الواضح والجلي لصلاحية الشريعة الإسلامية للتطبيق في كل زمان ومكان، وأنها تتضمن الحلول لكافة النوازل في شتى المجالات والميادين ،وهذا البيان هو من أعظم الجهاد ،وفيه قطع للطريق على المناوئين الذين يريدون إظهار الشريعة بمظهر العجز عن مسايرة الواقع وتقديم الحلول.

سادساً :التركيز على الصناعة الإعلامية ووسائل التواصل الحديثة لإيصال رسالة الإسلام ...وهذه نقطة ضعف كبرى لدى فصائل العمل الإسلامي والتي تمثل العمود الفقري للقوى الثورية الحقيقية.

دور العلماء في النهوض بالأمة:

لا شك أن أوضاع الشعوب في ظل سقوط أنظمة حاكمة، وقيام أنظمة أخرى على أنقاضها ؛هي أوضاع استثنائية تختلط فيها المصالح بالمفاسد، وتحكمها في كثير من الاحيان قواعد الضرورة ؛الأمر الذي يتطلب من أهل العلم نظراً خاصاً يقوم الاجتهاد الجماعي والموازنة الدقيقة بين المصالح والمفاسد ؛حتى لا يقع الناس في بلبلة واضطراب.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:"وهذا باب التعارض باب واسع جداً، ولا سيما في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة، فإن هذه المسائل تكثر فيها، وكلما ازداد النقص ازداد ذلك وهو من أسباب الفتنة بين الأمة ،فإذا اختلطت الحسنات بالسيئات وقع الاشتباه والتلازم فأقوام قد ينظرون إلى الحسنات فيرجحون هذا الجانب وإن تضمن سيئات عظيمة وأقوام قد ينظرون إلى السيئات فيرجحون الجانب الآخر وإن ترك

حسنات عظيمة والمتوسطون الذين ينظرون الأمرين قد لا يتبين لهم أو لأكثرهم مقدار المنفعة والمضرة أو يتبين لهم فلا يجدون من يعينهم العمل بالحسنات وترك السيئات ; لكون الأهواء قارنت الآراء ولهذا جاء في الحديث (إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات)". مجموع الفتاوى ٢٠/ ٤٨

ومن المعلوم أن القوى الثورية في دول الربيع العربي، ليست في حال من القوة والتمكين ..تستطيع من خلالها تطبيق الشريعة الإسلامية في كل نواحي الحياة ؛وذلك لأن حال القوة والتمكين ،لا ينبني فقط على قناعة الأكثرية بتطبيق الشريعة....حتى ولو وصل ممثل هذه الأكثرية للسلطة...بل يحكم ذلك اعتبارات أخرى: كقواعد النظام الدولي والاعتبارات الاقتصادية والضغوط السياسية للدول الكبرى، وكيد الأقليات والطوائف والتيارات المنحرفة وغير ذلك.

وقد دفع ذلك بالقوى الثورية للتعامل بواقعية من خلال الانخراط في اللعبة الديمقراطية ،غاية ما ترجوه في هذه المرحلة أن يكون لها نفوذ وتأثير في دولة مدنية تعددية؛ تحقيق ما يمكن من المصالح الشرعية المتعلقة بدين الناس ودنياهم ...ومن العجيب أنه كما يؤمل الإسلاميون أن تكون مشاركتهم في هذا المعترك ،هو مجرد قنطرة يعبرون من خلالها لإقامة الدولة الإسلامية التي تقيم الدين وتسوس الدنيا به...فإن أعداءهم يراهنون على نقيض ذلك: وهو أن تتحول هذه الأنظمة بمن يحكمها من الإسلاميين-مع مرور الوقت وشدة ضغط الواقع- إلى أنظمة ليبرالية صرفة!!

ويمكن تلخيص دور العلماء في النهوض بالأمة ،فيما يلي:

أولاً:قيام العلماء بالسعي لإعادة ترتيب المشهد المجتمعي عن طريق القيام بدور: المحفز والراعي والموجه للتيارات والجماعات المخلصة ؛لحثها على تكوين الكيانات والأحزاب والتجمعات والنقابات التي ينبغي أن تكون مكوناً رئيساً وفاعلاً على الصعيد السياسي والتشريعي والاعلامي والاجتماعي والدعوي والتعليمي.

ثانياً : استغلال حالة الفراغ والمرونة التي تصاحب مرحلة إعادة بناء الدول، في أعقاب الثورات؛ وما يرافق ذلك من فراغ تشريعي ومؤسسي؛ وتوظيف هذه الحالة في ترسيخ قيم الإسلام والتمهيد لتطبيق الشريعة الإسلامية ؛ وذلك بوضع أسس هذا التطبيق في مشاريع الدساتير المراد صياغتها.. وحشد الرأي العام للوصول لهذه الغاية، وتحفيز المخلصين من الاسلاميين ومن يمكن أن يعمل معهم من سائر الشرائح المجتمعية ؛لخوض المعترك السياسي وتوظيف كافة الوسائل المشروعة :كتكوين الاحزاب والكيانات

والتحالفات ؛لتحقيق المصلحة العامة، وصياغة دستور يحقق اكبر قدر ممكن من المصالح الشرعية ،والاعداد لبرنامج سياسي جامع للأمة يتمحور حول الثوابت والمحكمات.. يسهل عرضه وتسويقه.. ويسهل فهمه من قبل العامة...ويركز على الأمور الجامعة والجاذبة: كالنهضة والتنمية ونحوها...على أن يكون كل ما سبق هو بمثابة المرحلة الانتقالية ، والتي من المفترض أن تكون قنطرة لتحقيق الهدف المنشود لهذه المشاركة وهو الوصول لتحكيم الشريعة في كافة جوانب الحياة ،الأمر الذي سيكون كفيلاً بتحقيق نهضة حقيقيةٍ للأمة.

ثالثاً :أن يجتهد العلماء بالتعاون مع المتخصصين في الجانب السياسي ؛ برسم خارطة طريق للنهوض بالأمة سياسياً :تنظيراً وتطبيقاً:عن طريق بيان معالم المشروع السياسي الاسلامي القائم على العدل والشورى؛
واجتماعياً: بتوضيح معالم العدالة الاجتماعية في الاسلام ،ووضع مشاريع للإصلاح الاجتماعي.
واقتصادياً: ببيان النظرية الاقتصادية الاسلامية وثمارها المباركة.
وهذه الادوار ليست بالأمر السهل بل تتطلب جهوداً حثيثة وخططاً محكمة وتعاوناً كبيراً بين كافة الشرائح المجتمعية.

رابعاً :لابد للعلماء أن يستثمروا ما يحظون به من قبول عام؛ لتحفيز الأخيار من المتخصصين أو من لديهم الاستعداد للتخصص ؛لبناء العدد الكافي من المؤسسات والبرامج والتجمعات السياسية والثقافية والتعليمية والاجتماعية والاعلامية التي تحقق المقاصد الشرعية ،وتحمل الخطاب المتماهي مع طبيعة المرحلة والمستوعب للظروف والمتغيرات المحلية والإقليمية والعالمية..على أن يبقى دور العلماء محصوراً في التحفيز والتشجيع والمباركة والنصيحة...حتى تقوم مثل هذه المشاريع على ساقها...

خامساً :لا ينبغي أن يغفل العلماء أن العدو الأكبر لشعوب دول الربيع العربي التي ثارت وانتفضت على الظلم؛ هم خليط :من اتباع الأنظمة المنهارة؛ وبعض الأنظمة الحاكمة المناوئة للثورات ،بالإضافة لبعض الأنظمة الغربية...وهذا الخليط يعمل بشكل منظم ويدفع مبالغ طائلة؛ لسرقة الثورات فإن لم يتمكن من ذلك؛ فليس لديه مانع من إحراق الأخضر واليابس؛ للحيلولة دون تأسيس أنظمة حكم صالحة لن يكون لهم فيها موطيء قدم ،وهذا الحلف المدنس يوظف جملة من العوامل(كالمال السياسي والإعلام وغير ذلك) لتشويه صورة القوى الثورية الحقيقية، وبث الفرقة بينهم وتوهين شأنهم، وشراء ذمم من يستطيع ؛لتوظيفه

لهذه الأغراض الخبيثة...وهنا يتأكد دور العلماء في بيان الحق والنصح للخلق وإصلاح ذات البين ورأب الصدع ،وتوجيه المخلصين للاجتماع والألفة ؛ والعمل الجاد في كافة الميادين لملء الفراغ.. وتفويت الفرصة على المتربصين...ولا شك أن العلماء مؤهلين بامتياز للقيام بهذا الدور نظراً لما يتمتعون به من قبول لدى شرائح واسعة من الشعوب....

ولا يمكن للعلماء القيام بهذا الدور على الوجه المطلوب –بعد توفيق الله–إلا إذا آزرهم وعاضدهم مجموعات من المستشارين المتخصصين في السياسة والادارة والإعلام والاقتصاد وغيرها من التخصصات... وهذا ليس بعسير فالمجتمعات الإسلامية تزخر بعدد كبير من هؤلاء المتخصصين من أهل الغيرة والإخلاص والذين يتحرقون لنصرة الحق والمساهمة في البناء والتنمية.

سادساً :إن دور العلماء–ولا سيما في أوقات الأزمات والمحن – لا ينحصر في الفتوى وبيان الحكم الشرعي ؛فحسب...بل يتعدى ذلك لنصرة المظلوم وإغاثة الملهوف وتبني قضايا عامة الناس ..وتوجيه الناس للتعاون على البر والتقوى...وفق برامج واضحة وخطط مدروسة للنهوض بالأمة في شتى المجالات... ولا نعني هنا أنه يجب على العالم أن يباشر بنفسه كل هذه الأدوار السياسية والاقتصادية والاجتماعية... الخ؛....لا.. بل يكفي أن يباشر العالم جزءاً من هذه المهام(ولا سيما فيما يتعلق بقضاء حوائج الناس) بالإضافة لوظيفته الأساسية في بيان الحق....ويكتفي أن يكون بمثابة الموجه والمحفز والمشجع والمبارك... لبقية الجهود والأنشطة السياسية على أن يترك لغيره تسيير دفة العمل فيها...إذ إن لمقام السياسة من الخطاب والأدوات والوسائل –ولا سيما في أحوال غربة الدين واختلاط الحق بالباطل – ما قد لا يتناسب مع مكانة العالم وهيبة العلم.

سابعاً :لابد من يقوم العلماء بالبيان الواضح لكافة الناس :من أن الانخراط في العمل العام بكافة جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية.. وجميع ما يتطلبه ذلك من وسائل كإنشاء الأحزاب والتجمعات والكيانات أو الانخراط في الوظائف العامة ؛هو من فروض الكفايات وقد يتعين على بعض الناس.

ويتطلب ذلك إصدار الفتاوى المتعلقة بذلك وتوظيف جميع الوسائل المتاحة لنشر ذلك بين الناس... ولا سيما في ظل مناداة بعض الجهال بنقيض ذلك وتزهيد عامة الناس فيه.

وختاماً...فإن العلماء لا يمكن أن يقوموا بهذه الأدوار الكبرى إلا إذا أصلحوا أنفسهم :بالإخلاص والمتابعة.. وخشية الله وحده، واستمداد العون منه، والانعتاق من حظوظ هذه الدنيا الزائلة ،متمثلين قول الله تعالى "فلا تخشوا الناس واخشوني ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً" ..والتعاون على البر والتقوى.. وبالله التوفيق

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،،،،